بسم الله الرحمن الرحيم

# تمهيد

سألنى صديق لى كريم المنزلة عندى أن أتخيَّر له صَدرا من تلك «المَرايا» التى أرسلتُها فى «السياسة الأسبوعية» ليطبعها ويسوِّيها للناس كتابًا، وتعذَّرتُ عليه دهرًا لأننى إنما أُعانيها على أنها بنتُ ساعتها وحديثُ يومها لا على أنها مما يثبُت، فى الزمان، لتردّدِ الأنظار، واعتياد الأفكار؛ وما برح يعترينى بإلحاحه الكريم ويملك علىّ مذاهب الحجج فى مطاولته حتى لم أجد لى مفيضًا من التسليم، فجمعتُ منها طائفة وضممتُ إليها ما كتب فى هذا الباب شاعر مصر الكبير حافظ بك إبراهيم [1] فى حضرة صاحب الدولة الرئيس الجليل [2]، وما كتَبَ أديبٌ آخر فى حضرة صاحب الفضيلة شيخ الجامع الأزهر، وجعلتُ أعودُ على تلك «المرايا» بألوان التهذيب فأرُمّ ما رث [3] بالطبع، واستدرك ما عسى أن تكون قد فوّتت العَجَلة من فنون المعانى ، وأعالج ما أضعفت السرعةُ فى القول وأوهتْ من نسج الكلام، وأضفْتُ إلى هذه المجموعة طائفةً أخرى من رسائل شتى كان قد جرى بها القلم؛ على أنها كلها مما يدخل فى معنى تلك «المرايا» ويتصل بجنسها. ثم لقد اعتمدت من ألفاظ هذا الكتاب كلّ ما يحتاج إلى الضبط فضبطته بالشكل، وكلّ ما يحتاج إلى المراجعة ففسرته، تدريبًا للناشئين على المنطق الصحيح، وأمدّنى بأصدق العون فى هذا كله وفى تصحيح طبع الكتاب الأديبان اللغويان الأستاذ أحمد زكى العدوى والأستاذ محمد صادق عنبر، وصلهما الله عن الأدب بخير الجزاء.

---

(١) ستأتى ترجمته ، وحديث الشيخ البشرى عنه .

(٢) يعنى به سعد زغلول، وسنترجم له عند الحديث عنه .

(٣) رثَّ : الثوب ، بَلِيَ ، وهيئة الرجل : قبحت وهانت .

وصدّرت كل «مرآة» بصورة صاحبها «الكاريكاتورية» من رسم الفنان الأشهر الأستاذ «سنتيز» ، أما صورة الغلاف فقد تفضل بوضعها الأستاذ الفنان المبدع مصطفى بك مختار محرم، مدّ الله فى عمر أناملهما رحمة بالفن الجميل.

ولست أتحدّث عن مطبعة دار الكتب فإن كل آثارها تحدّثك وحدَها عما أوفَى على الغاية من الدقة والجمال والإحسان، ولا يفوتنى فى هذا المقام أن أنوّه بما لحضرة محمد نديم أفندى ملاحظ المطبعة من همة وخبرة يزينهما حسن الخلال.

وقد راعيت فى ترتيب هذه «المرايا» تواريخ نشرها فى «السياسة الأسبوعية» فلا تأخذنى، بعد هذا بتقديم زيور باشا فى «رجال السياسة» على سعد باشا زغلول، ولا بتقديم الدكتور محجوب ثابت فى «الطب» على على بك إبراهيم، ولا بتقديم الأستاذ فكرى أباظة فى «الوطنية» على حافظ بك رمضان!

والغايةُ التى تذهب إليها «المرآة» هى تحليل «شخصية» مَن تَجلّوه من الناس، والتسلُّلُ إلى مداخل طبعه، ومعالجة ما تدسّى [1] من خلاله ، ونفضُ هذا على القارئ فى صورة فكهة مستملحة، وهذا النوع من البيان إنما ترويناه عن كتّاب الغرب وما فتئنا نقلّدهم فيه تقليدًا ؛ على أن بعض كتاب العرب من أمثال الإمام الجاحظ [2] قد سبقوا إلى شىء من هذا التصوير

---

(١) تدسى : غوىَ وفسَدَ.

(٢) هو الأديب العربى العملاق أبى عثمان عمرو بن بحر المعروف بالجاحظ ، ولد بالبصرة سنة ١٧٩هـ ، ونشأ بها وطلب العلم فى صباه حتى بلغ شأوًا بعيدًا فى كثير من العلوم والفنون، كان الجاحظ قوى الحافظة ، واسع الرواية، سريع البديهة، حلو الفاكهة، كثير القراءة من أشهر مؤلفاته «الحيوان» و« البيان والتبين» و« البخلاء » وغيرها ، توفى الجاحظ سنة ٢٥٥هـ .

البيانى إلا أنهم لم يعْدُوا فيه تسقُّطَ هنات المرء والصولةَ عليها بألوان التندّر [1] والتطريف، أما التوسل بمظاهر خلال المرء إلى مداخل نفسه ومنازع طبعه ، وإجراءُ هذا على أسلوب علميّ وثيق (Psychologique) فذلك ما لم أقع عليه فى منادراتهم ووجوه تطرفهم.

ولايذهب عنك أن شأن الكاتب فى هذا الباب كشأن المصوّر (الكاريكاتورى) فهو إنما يعمد إلى الموضع الناتئ [2] فى خلال المرء فيزيد فى وصفه ويبالغ فى تصويره بما يتهيأ له من فنون النكات ، وأنت خبير بأن مردّ النكتة إلى خلل فى القياس المنطقى بإهدار إحدى مقدّماته أو بتزييفها أو بوصلها، بحكم التورية ونحوها، بما لا تتصل به فى حكم المنطق المستقيم، فتخرج النتيجة على غير ما يؤدّى إليه العقل لو استقامت مقدمات القياس، وهذا الذى يبعث العجب، ويثير الضَّحك والطرب، فالنكتة بهذا ضرب من أحلى ضروب البديع، ولا يعزُب عنك كذلك أن «النكتة» إذا لم تكن محكمة التلفيق متقنة التزييف بحيث يُحتاج فى إدراكها إلى فطنة ودقة فهم خرجت باردة مليخة [3] لا طعم لها فى مساغ الكلام.

ولعلك آخذى بأننى أُسِفّ أحيانًا إلى العامية الشائهة فأوردها فى دَرج الكلام، وعذرى فى ذاك ما تعرف من أننا نكتب بلُغة ونتناول أسبابنا الدائرة بلُغة أخرى؛ وهيهات لك أن تجلّى على القارئ صورة كاملة من حديث قوم فى مُنَاقلاتهم ومنادراتهم وما تطارحوا من فنون النكات إلا بأن تورده كما نطقوا به، وبخاصة إذا كان يجرى فى التعبيرات التى تشيع على ألسن

---

(١) تندر: حدَّث بالنوادر، وعلى فلان : سخر منه.

(٢) الناتئ : البارز .

(٣) المليخ: بالخاء كل تافهٍ غير مقبول .

الناس وتذهب عندهم مذهب الأمثال؛ فإذا حاولت أن تؤدى هذا بفصيح اللغة فسد الغرض واختلّ نظم الكلام، ولِلإمام الجاحظ فى هذا المعنى قول جليل، فراجعه إن شئت فى كتابه «البخلاء» [1].

وبعد فالرأى ألا تتناول الأقلام بمثل هذا النوع من الحديث إلا آمرًا يقوم على شأن عام ؛ على ألا تَتَرِه [2] حقًا ولا تُضيف إليه ما ليس له؛ وعلى ألا تتدسس إلى مكارهه ولا تطلب من مستور هناته ما لا يتصل بالشأن العام؛ فإذا هى اعترتْه [3] بعد هذا بألوان التندّر كان حقيقًا بها ألا تصرف وجه القول إلى الرغبة فى تهاونه والتهزىء به والكيد له، وهذا ما تحريتُه فيما عالجت من هذه «المَرَايا» فإن يكن قد ندّ القول بعض الحين فإننى أمرؤ ينبو علىّ القلم ، وتزل بى القدم؛ وإنى أستغفر الله وأسأله العافية.

(١) يريد كلام الجاحظ الذى يعنى به أن النكتة إذا حكيت باللغة الفصحى على عكس ما ذكرت به ، فإنها تشوهها بل يذهب الجاحظ إلى الحكاية باللهجة التى رويت بها لأن هذا أوقع فى الإضحاك.

(٢) تتره: تنقصه، وفى القرآن ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ (محمد : ٣٥).

(٣) اعترته: أصابته



obeikandl.com